الفصل الخامس

الإنسان وموقعه من الوجود

obeikandl.com

obeikandl.com

الإنسان وموقعه من الوجود

الإنسان شاغل نفسه وليس شاغلًا للوجود، وكل ما تراه وتعايشه وتدركه يقينًا من شأنك كله -أيها الإنسان- لا يخرجك من دائرة الحقيقة بأنك هامشي جدًّا وموقعك على حافة الحوداث والأقدار، أنت لست بشيء يذكر في ميزان الوجود الأعظم لولا أن الله العظيم قد كرمك، ومنحك هذه الصيرورة والوجود الذي تلمسه حسيًّا ومعنويًّا، تستطيع الوصول إلى هذه النتيجة بسهولة لو أنك تأملت في نفسك ذاتها، وسألتها أسئلة بدهية عن كينونتك ومآلاتها، مثل: من أنا؟ ولماذا وجدت؟ متى وجدت هنا؟ وكيف وجدت؟ وإلى أين سيكون مصيري بعد هذا الوجود؟ هل أستطيع أن أخلق شيئًا لنفسي؟ أو لغيري مهما كان صغيرًا؟ من أوجدني، وتكفل بنفسي وروحي وبطعامي وشرابي اليومي وحياتي ومماتي؟ أحب أشياء في هذا الوجود وأتمناها، فلماذا لا أستطيع جلبها لنفسي بنفسي، وأكره أخرى تحدث، فتنغص علي حياتي، فلماذا لا أستطيع دفعها عني؟ هل أنا المستخلف وحدي في هذا الكوكب؟ كم من المخلوقات استوطنت الأرض قبلي؟ أو معي؟ أو بعدي؟ أنا والزمان! أنا والمكان! أنا والوجود كله! أنا! أنا! من أنا؟

سينكشف لك حقيقة الجهل فور الغوص بأعماق هذه الاستفهامات الوجودية البدهية من حيث ورود السؤال، المستحيلة من حيث الجواب لولا خبر الوحي عن بعضها، وسيتبين لك بعدل كم أنت ضعيف وضعيف جدًّا، بل كم أنت هامشي على حافة هذا الوجود، أنت يا من تجادل، أحيانًا في أمر الله العظيم بغير علم، أنت باختصار لا شيء في هذا الوجود القائم لولا أن الله خلقك، وكرمك، واستخلفك على سطح واحد من كواكب كونه ووجوده الشاسع، وجعل لك عقلًا بمستواك البشري طبعًا تدرك به جزءًا من عالمك، ولكنك قطعًا لا تعلم حقيقة العوالم الأخرى، سواء كانت زمانية من ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، أو عوالم مكانية داخل وخارج الأرض، وما يتعلق بها من شمس وقمر وهواء: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

*****

الإنسان في مواجهة البعوضة!

عجبًا لأمرك يا من تدعي منازعة الخالق في خلقه وجودًا وعدمًا، وأنت لا تقوى على مواجهة الحشرات الصغيرة، لا بل عاجز عن مواجهة أصغر كائن تعلمه (الفيروس) الذي أضناك علاجه في كثير من الأمراض المستعصية، إنك تعجز عن الحماية من مخلوق لا يمكن أن تراه من صغره، ولو رجعت إلى ما يمكن أن تراه بالعين المجردة، فسينكشف عجزك أيضًا، قارن نفسك بأقرب المخلوقات إليك وأدناها في نظرك، ستدرك حقيقة ضعفك أمام ذبابة صغيرة، بل أمام بعوضة أصغر، تهاجمك فتسلب طعامك وشرابك أمام ناظريك، وتصل البعوضة الصغيرة جدًّا إلى دمك النقي تحت جلدك وعلى حين غفلة منك، فتلعقه هنيئًا مريئًا رغمًا عنك، فلا تكتشف عملية السطو المنظم هذه إلا بعد مغادرة البعوضة التي ربما طارت بسلام، عندما تحرّك يدك لقتلها، بل وتنقل لك الملاريا القاتلة التي ربما تنهي وجودك في هذه الحياة عند الإصابة، لقد قتلتِ النمرود الذي كان يدعي أنه يحيي ويميت! هذه قوة البعوضة أمامك وأنت تبحث عن شتى الحيل العلمية للتغلب عليها، إذ لا سبيل إلى مقاومتها مباشرة، فهي أقدر منك على الحركة وأسرع للاستجابة لأي مؤثر حولها، فكيف لو تصورت حجمك أمام مخلوقات أكبر وأكبر وأقدر، أو مخلوقات لا يمكن أن تتصورها، ولا تعقلها لعظم حجمها وما أكثرها؟!

إنك لو تصورت موقعك الطبيعي بين المخلوقات الأخرى لصححت الكثير من المفاهيم والتصورات الخاطئة، وأدركت الحقيقة بأنك هامشي في الوجود، وعابر سبيل على عجل في الطريق، وأن لك أجلًا محددًا ثم موتًا محققًا، وهذه كلها صفات عامة يشترك معك فيها جميع الكائنات من البعوض والذباب والصراصير والخيل والبغال والحمير والفيلة والأسود، وحتى الكائنات المجهرية الدقيقة، التي بعضها وفق معايير الدنيا المادية أقوى منك بأسًا وأطول عمرًا، وكيف لا يكون الأمر كذلك، ومتوسط عمرك لا يتجاوز الثمانين، وإن طال فمئة عام، تتساوى بذلك أنت والسلحفاة! ولو فكرت في حجمك الطبيعي لأدركت موقعك في سلم الحياة وأنت لا تستطيع حماية نفسك مباشرة، لا أقول من الحيوانات المفترسة الضخمة، بل حتى من الذباب الصغير،

نعم، هذا الذباب الطائر حولك إذا سلبك شيئًا من طعامك، هل تستنقذه منه؟ أو لدغتك نحلة، ثم هربت منك هل تستطيع مطاردتها مباشرة لاستردادها؟ تأمل سرعة استقبال الذباب للمعلومة، عندما يغشاه الخطر، وسرعة التعامل مع المعلومة وتحليلها واتخاذ القرار بالهرب منك، كل ذلك يتم خلال الثانية أو أجزاء منها، إن هذا الذباب الذي تراه ذبابًا، هو في الحركة أسرع منك بعشر مرات، عندما يداهمه الخطر، يستقبل إشارة الخطر، ثم يحللها، ويحدد اتجاه السلامة، ثم يتخذ قرارًا للهرب في اتجاه آمن، ثم ينفذ قراره، فيطير نحوها، يفعل ذلك كله من لحظة تحريك يدك نحوه وقبل أن تصله! فإذا أدركت ذلك من واقع حياتك، فتحول فضلًا إلى هذه الآية في كتاب الله، وتأمّلها جيدًا، حتى لو كنت قد قرأتها من قبل مرات عدة، اقرأها الآن بتدبر خاص على ضوء هذه المعلومة، فستجد فيها شيئًا جديدًا هذه المرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. أتظن أن هذا الذباب سهل؟! يقول (توماس أكويناس)[1]: «ما من عالم حتى اليوم عرف حقيقة ذبابة»، ويقول (روجر باكون)[2]: «إنه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع أن يعرف كل شيء عن ذبابة واحدة»[3]، هكذا قالوا وهم لا يمرّون على آية سورة الحج، كما يسرها الله لي ولك نمرّ عليها، فانظر إلى منة الله وفضله علينا وعلى الناس في هذا البيان الموصل إلى الإيمان، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

لن يتوقف التحدي عند الذباب، بل يتجاوزه إلى ما هو أدنى منه، ولنرجع إلى البعوضة مرة أخرى، ولله الحكمة البالغة في اختيارها مثلًا على الرغم من صغرها! إنك

(١) توماس أكويناس أو توما الأكويني Thomas D'Aquin (١٢٢٥-١٢٧٤م) الموافق (٦٢٢-٦٧٢هـ) ولد في آكوين وإليها ينتسب ويُعدّ من أكبر فلاسفة العصور الوسطى المسيحية ترك لمسات لا تزال موجودة على الفكر المسيحي الكاثوليكي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٤٢٦).

(٢) روجر بيكون (١٢١٤- ١٢٩٤م) الموافق (٦١١- ٦٩٣هـ) هو الفيلسوف والراهب الإنجليزي التجريبي وأشهر علماء القرون الوسطى الأوروبية والطبيب والمعلم المذهل كما يعرف بذلك:

(Encyclopaedia Britannica- Roger Bacon, Theodore Crowley, O.F.M. Last Updated 12014-9-).

(٣) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الجسر، (مرجع سابق)، ص٤٢٤.

لا تستطيع حماية نفسك منها أيضًا، مثلها مثل الذباب، بل هي الأخطر؛ لأنها مع كونها الأصغر حجمًا فهي أكبر قاتل بشري بنقلها لفيروس الملاريا الذي يحصد سنويًّا أكثر من مليون ضحية[1]، ويخطف الموت بسببها طفلًا كل دقيقة، لن تستطيع أن تفصِّل الوجود على مقاسات خيالك وتصوراتك، فتصحح وتخطئ حالاته وأسراره وفق منظور عقلك وأنت الضعيف جسديًّا وعضليًّا حتى أمام البعوضة والذباب! ماذا ستكون أوضاعك أمام هذه الحشرات الضعيفة لولا ما سخره لك الخالق من أدوات الحماية والوقاية، وأولها هذا العقل الذي ميزك به عنها، وما فتح عليك من علم وتقنية واختراعات وظفتها للوقاية والحماية من هذه الكائنات المتفوقة عليك بقدراتها الذاتية ما عدا العقل، هذا العقل الذي يجب تسخيره للشكر لا للكفر والنكران وعلى أنه هبة من الخالق لا ينبغي توظيفه فيما لا يرضيه، فإذا كان هذا حال الإنسان مع صغار المخلوقات، فكيف سيكون حاله أمام عظائمها؟ إن هذا لشيء عجيب!

ولا ينتهي العجب عند هذا الحد، بل كيف بك وأنت تعلم علم اليقين في عقلك الباطني أن خالق هذه المخلوقات الجبارة في كبرها وعظمها لا بد أن يكون أكبر منها وأشد قوة وقدرة، هكذا يجب أن يكون مدخل تفكيرك لتعرف حقيقة الوجود من حولك، ولتدرك حجمك فيه، أما أن تتناول موضوع الخالق بكل عشوائية وتخرص وخيال خاطئ، وغرور قاتل مع عجزك الشديد عن فهم أدنى المخلوقين في أول طريق التفكير بهم، فهذا عدوان عقلي، وتجاوز ممقوت، وفجور في الجدل لا مكان له في عالم العقل.

إننا وأنت على حد سواء في مواجهة متواصلة مع هذه القضايا الوجودية التي تكشف ضعفنا، فما أظلمك أيها الإنسان، وما أكفرك! حين تفكر مجرد التفكير في منازعة الجبار العظيم في ملكه ومشيئته وأقداره وأنت عاجز عن حسم أمرك في هذا الوجود مع بعوضة صغيرة تطير حولك، كيف بلغت بك الجرأة أن تخاصم في شأن من أوجدك، وسير عمليات الحياة الدقيقة في جسمك إلى أن أصبحت متكاملًا بخدمات متكاملة كمجمع

(١) أصدرت منظمة الصحة العالمية بالتعاون مع اليونيسيف تقريرًا جاء فيه أن الملاريا تصيب من بين ٣٥٠ إلى ٥٠٠ مليون إنسان في العام ويموت منهم أكثر من مليون شخص وبحسب التقرير فإن أكثر من ٤٠٪ من سكان العالم معرضون للإصابة بها عن طريق لسعة بعوضة الأنوفليس: (أسوشيتد برس).

صناعي وإنتاجي ضخم، يتحرك في كل مكان، ويحوي مصانع معقدة تفوق بأدائها كفاءات مصانع الدنيا بأسرها، تنعم بهذا العطاء اللامحدود من الخالق، ثم تعرض عن هذا، وتجادل في ذلك، طبعًا أنت تعيش حياتك وتأكل وتشرب وتنام وتسعى وتكدح، دون أن تدرك عجائب جسمك الباهرة لكل عقل التي منها -على سبيل المثال- أن فيه ما يزيد على عشرة تريليونات خلية حية، وكل خلية من التعقيد بدرجة أنها تتكون من عشرة آلاف مليار ذرة[1][2]، وأن لكل ذرة نظامها وتركيبها وموقعها المميز، والكل يتحرك في مسار لا يخطئه، ولا توجد ذرة واحدة خلقت عبثًا في هذا البناء المتكامل من خلايا جسمك، بل كل ذرة تقوم بواجب محدد، ولك أن تتخيل أن خلية بكتيرية واحدة لا ترى بالعين المجردة تقوم بجميع الوظائف التي يقوم بها جسم الإنسان تقريبًا من حياة وتنفس وتكاثر ودورة غذاء وغيرها، وأنت أيها الإنسان، بفضل الله الخالق قد كفيت مؤونة إنشاء وإدارة وصيانة وحراسة وتشغيل وتطوير وتمويل ورعاية جميع هذه المنشآت الضخمة المعقدة في كيان جسمك المتكامل منذ أن كنت نطفة إلى أن تنتهي حياتك من الدنيا وأنت في حفظ وسلامة ورعاية من أوجدك، ثم تأتي بعد كل هذا لتجادل في الله دون أن تخشى أن تكون أنت المعني بهذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

*****

الإنسان ونكران الجميل

إن الخطوة الأولى للشكر هي أن تذكر نعمة الله عليك مع نفسك وأمام الآخرين على أنك عبد ضعيف محتاج إلى الله القوي العزيز، أما من يوهم نفسه بمنازعة الخالق في خلقه مستمتعًا بنعمته وفضله عليه، فهذا غاية النكران في حق خالقه، وكان الأجدر والأوفى بحق من ميزه بعقل أن يشكره ولا يكفره، ويذكره ولا ينكره، لا أن يسيء الأدب معه بسوء استعماله لجزء من عقله الذي خلقه به الخالق عاقلًا مدركًا، ولم يجعله

(١) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١٧.

(٢) العلم في ١٠٠١ سؤال، جيمس تريفل، ترجمة: عفيف الرزاز، أكاديميا، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٣٢.

مجنونًا، لا يستوعب الأمور ولا يفهمها، أيُعقل أن يبلغ الإنسان هذا الحد في الاعتداد بالنفس والغرور أمام هذه النعم؟! أيكون هذا شكره لمن خلقه فسواه فعدله؟! تذكر مشاعرك المتدفقة شكرًا وعرفانًا نحو طبيب ضعيف أجرى لك عملية ناجحة في جزء يسير من جسمك، أو أشرف على علاج عزيز عندك، من دون أدنى شك ستغرقه بأصدق عبارات الشكر والمديح والإطراء، وستسارع بإهدائه دروع الشكر وشهادات التقدير وحفلات التكريم، وستبقى وفيًّا له معترفًا بجميله، حتى وإن قام بذلك مقابل أجرة باهظة، ولم يكن ضامنًا لنتيجتها، بل الضامن هو الخالق القائم على كل نفس، الذي لو شاء ما نجح ذلك الطبيب الذي تكاد تعبده عرفانًا بجميله، والطبيب لم يخلق شيئًا من عنده، بل تصرف فيما وجده مخلوقًا له من أسباب وأعضاء وأنسجة ودم وعلاج وعلم، مستخدمًا عقلًا وهبه الله له كي ينجح مرة، ويخفق مرات، ويصبح بذلك طبيبًا متميزًا في أعين الناس.

الموقف يتطلب شيئًا من العقل والتعقل بأداء حق الله، حتى لو أنه الغني عن ذلك كله، ورب الكعبة لو فكرت في أمرك، لتوصلت إلى أن تشكر الخالق شكرًا مطلقًا لا أقول عند عافيتك من مرض فحسب، بل أيضًا عند إصابتك بأي مرض، حتى لو أدى في النهاية إلى الموت، تشكره شكرًا يفوق بلايين المرات ثناءك على طبيب مثلك، يوظف الأسباب التي خلقها الله لعلاجك، وهذه الأسباب والطبيب أصلًا وأنت معهم كلكم قطرة صغيرة في بحر جند الله في ملكه، نعم تشكر الله في حالات المرض؛ لأنك بها تتذكر ما لا يحصى من العافية القائمة في جسدك في بقية أعضائه قبل مرضك وبعده، ألا يستحق الشكر من أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى حتى لو أخذ شيئًا منها يسيرًا بل كثيرًا، بل حتى لو استردها كلها بالموت بعد أن وهبك إياها صافية سليمة، ثم استمتعت بها عمرًا دون تكلفة ولا منة ولا عناء؟ حقًا إني لأجد نفسي أقف أمام الخالق راكعًا ساجدًا شاكرًا لمن يقول، وقوله الحق: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إن هذه النعم العظيمة توجب المبادرة بالشكر وتجنب النكران والجحود، ومن أشد النكران هذا الجدال الباطل عبر التاريخ حول وجود من أنعم بها علينا! لو أن خالق

الكون لم يخلق لك سوى هذا القلب النابض بهذه الطريقة المتواصلة طوال حياتك يعمل من تلقاء نفسه لا يتوقف ثانية واحدة، ولو حدث ذلك لانتهى أمرك بلمح البصر، ومع هذا تمر عليك الدقائق والساعات والأيام والأعوام، غارقًا في غفلة والقدر يتخطفك، لو استحضرت هذا فقط وتأملته جيدًا لاستحييت أن تتصرف وكأنك تنازع الخالق قدرته الفائقة ولأوقفت كل جدال وجودي حوله مكتفيًا بالإيمان والتسليم؛ لأنك أعجز وأقل من أن تحرك خلية واحدة في جسمك فضلًا على قلبك النابض، ولو أوقفه عنك دقة واحدة لتعطل، وتعفن، وتحلل عقلك الذي تنازع به العظيم ملكه حتى يختلط بقاياه في التراب الجاف، ولو توقف نَفَسُك لحظات لكنت في عداد الأموات، كيف والأمر كما ترى خلق مختلف، وقلوب وأرواح وبحار وصحارى وسماء وأبراج ونجوم وكواكب ومجرات، وجنسك أيها الإنسان، منثور بينها لا تكاد تعرف شيئًا لولا أن الله عرّفك ورفع شأنك، وجعل لنا ولك سمعًا وأبصارًا وأفئدة لكي تعلم بها كل معقول، وتحس ما حولك من كل محسوس، عجبًا ثم عجبًا لك! أكل هذا تدركه دون أن يكون لك منه واعظ، وتعلم أنك لست شيئًا في ميزان بقية الخلق الذي لا تدركه، ومع هذا تريد أن تجعل من نفسك الضعيفة ندًّا للخالق الحي الباقي تجادل في وجوده، وهو الذي أوجدك أصلًا، وتفضل عليك بأدوات الجدال التي بها تجادل فيه، وتحاول عبثًا إخضاع ما لا قدرة لك به، وتجعل من عقلك ميزانًا للكون، وجودًا وعدمًا، زمانًا ومكانًا!

أليس من الواجب عليك عقلًا ومنطقًا أن تعرف حجمك في الوجود أولًا قبل أن تتطفل مكابرًا على منصة الحوار الوهمية الكبرى حول الوجود؟ أليس الأولى لك أن تلملم ما تبقى من سنيّات عمرك المتناثرة، التي لا تملك لها ابتداءً ولا انتهاءً، ثم توظفها فيما يخدم مستقبلك القادم المخيف الذي لا خيار لك ولا مهرب عنه؟ بلى، هذا أولى لك وأنفع من أن تنصب نفسك حكمًا على ما يستحيل عليك استيعابه، ليس الأمر للمزايدات الكلامية أو للتواضع المصطنع، بل هو دعوة مدوية لليقظة والوقوف متوازنًا في مكانك الطبيعي كإنسان يعرف قدره بعيدًا عن التجاوز والعدوان الفكري بحق الخالق، عليك أن تعرف نفسك، وتقيم قدراتك ومهاراتك وخبراتك الكونية الحقيقية، وعندها ستستنتج أنك بالمعيار المادي لا شيء! وبالمعيار المكاني لا شيء! وبالمعيار الزماني لا شيء أيضًا!

لن تحتاج إلى جهد سحري كي تبرهن على هذه الحقيقة، ولن أحدثك عن علوم الكون وتعقيداته الحديثة السحيقة، بل سأكتفي بلفت الانتباه إلى ما يمكن أن تراه بعينك، هذه السماوات والأرض التي تراها بأم عينك، تسير على الأرض، وتعلوك السماء وأنت آمن في حياتك، ولو سقط عليك حجر بحجم التفاحة ومن مسافة أمتار قليلة لفلق هامتك، ولأحالك إلى رفات وتراب جامد، بينما الحقيقة أكبر منك ومن وجودك: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧] لقد وجدت نفسك مخلوقًا في هذا الوجود، كلما ازددت علمًا، أدركت صعوبة السيطرة على ما حولك، وما وضعت يدك عليه معرفيًّا من الدنيا لا يساوي شيئًا أمام الكم الهائل من الموجودات العظمي الخارجة عن السيطرة، إن حجمك لا يتناسب مع حجم الكون العظيم، ولا عمرك يصلح وحدة مقياس للزمن فيه، وهذا ما جعل الإنسان إما أن يضطرب، ويشعر بالخطر والتشاؤم والتمرد واليأس واللا مبالاة، أو الطمأنينة والتسليم المطلق لله[1]، ولا أحكم من التمسك بالخيار الأخير؛ لأنه خيار العقلاء والسعداء، بل إن ما سواه هو العمى الحقيقي، فقد حصر القرآن الخيار في أمرين لا ثالث لهما، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩].

*****

الإنسان والاستخلاف في الأرض

تستوقفك لحظات التأمل الغريبة، عندما تكون في طائرة على ارتفاع عشرة آلاف متر فوق سطح الأرض، ثم تلقي نظرة فضولية من النافذة، لترى المدن الكبيرة تحتك، وكأنها قطعة حصير صغيرة مزخرفة ببيوتها وشوارعها ومبانيها دون أن تميز معالم المباني الضخمة فضلًا على سكانها الموجودين فيها حتى لو لم تَرَهم بعينك، ولو ركبت سفينة فضاء، فارتفعت بك مئة كليومتر إلى أعلى لرأيت الأرض كلها، لا أقول بسكانها، ولا أقول بمدنها ولا دولها فقط بل بقارّاتها ومحيطاتها، وكأنها عملة نقود معدنية ملونة ملقاة

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيغوفيتش، (مرجع سابق)، ص٣٧٢.

في فضاء! ولو قدر لك أن تبتعد في الفضاء أكثر من ذلك لاختفت الأرض كلها من نظرك، وكأنها لا توجد في الوجود المرسوم في خيالك، ولو تجولت في مجرتنا التى تسمى (درب التبانة) لاختفت عنك الشمس مع كبر حجمها، فكيف بالكواكب التابعة لها؟!، ولولا معرفتك بالأرض مسبقًا لربما ترددت في تصديق من يخبرك عن وجودها مع أهلها القاطنين عليها، فأين تكون أنت فيها حينئذٍ؟ وأين يكون عقلك (المزعج) هذا؟ وأين يكون جدالك وزعمك مزاحمة الخالق؟! الجواب: أنت يا عزيزي، بالمعيار المكاني لا شيء في هذا الوجود، فاحمد الله الذي كرمك، ورفع شأنك فضلًا منه ونعمة.

أما مقامك وفق المعيار الزماني فهو أشد غرابة، فأنت أيضًا لا شيء يذكر! ويكفي أن هذا الوجود قد وجد قبل تسجيل أي أثر للإنسان على الأرض بمليارات السنين، وكان مجيئك إليه متأخرًا جدًّا جدًّا، ولم يكن العلم التجريبي وحده ليثبت ذلك، بل سبقه الوحي الإلهي: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ومن عجز الإنسان أنه لم يستطع تحديد فترة وجوده على الأرض بشكل دقيق، والتقديرات الموجودة بين يدي الباحثين اليوم عن مدة وجود الإنسان على الأرض تتفاوت ما بين عشرات الآلاف إلى ملايين عدة من السنين، ولو أخذنا الحد الأعلى لوجوده على الأرض ـ فرضًا – وبالغنا في تقديره احتياطًا لما استطعنا تجاوز بضعة ملايين من السنين، بينما تصل تقديرات عمر الكون ما بين أربعة عشر مليارًا (١٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) إلى عشرين مليارًا (٢٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من السنين[١]، وأن عمر الأرض نحو أربعة مليارات ونصف المليار (٤,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠) سنة[٢]، وبمجرد أن تتذكر

(١) رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٢٧.

(٢) كل ذلك علمه عند الله وحده وجميع هذه الأرقام اجتهادية بين العلماء وليست محل إجماع ولكن يقول بها غالبة المختصين ولا يوجد نص صريح من الوحي قديمًا أو حديثا يحدد هذه الأعمار وتبقى من علم الغيب الذي لا قدرة للإنسان عليه حتى لو تسابق العلماء لقول شيء في ذلك تبقى كلها تقديرات تقريبية انظر إلى هامش التقريب في تقدير عمر الكون نحو ستة مليارت سنة ما بين الحد الأدنى والأعلى أي أكثرمن عمر الأرض الافتراضي وهناك نصوص متناثرة وغير موثوقة عند أهل الكتاب بعضها يجعل عمر الأرض ٦٠٠٠ سنة فقط! وذلك لم يقبل به أحد من علمائهم المعتبرين الذين استخدموا المقياس الراديومتري لمعرفة هذه الأزمنة والأحقاب مستعينين بالأحافير ودراسة السلالات الحية على الأرض وسبحان من يعلم تفاصيل ذلك يوم أن عجزنا كل العجز عن معرفتها!

متوسط أعمار الناس تدرك يقينًا أنه لا اعتبار لك يا ابن آدم، في ميزان الزمن الأرضي وحده، مقارنة بما حولك من الخلق وحدهم، ولعل مما يحطم كبرياءك أن تعلم أن بعض الحشرات أقدم منك وجودًا على الأرض، فالعقرب - مثلًا - وجدت في العصر السيلوري[١]، أي قبل أكثر من ٤٠٠ مليون سنة! والديناصورات وُجِدت، واستمرت تجوب الأرض في العصر الترياسي[٢]، أي منذ نحو ١٠٠ مليون سنة والعصر الجوراسي[٣]، والطباشيري[٤]، ثم انقرضت تمامًا قبل نحو ٦٥ مليون سنة.

وعندما وجدت نفسك في الأرض خليفة، هل تعتقد أنك وحدك من يمشي عليها من مخلوقات الله فيها، إن تعداد سكان الأرض من البشر قليل جدًّا عند المقارنة بعدد مخلوقات الله الأخرى على الكوكب نفسه، ففي الوقت الذي لا يتجاوز عدد الناس اليوم على الأرض سبعة مليارات نسمة، نجد أن عدد الحشرات بجميع أصنافها وأجناسها يزيد على عدد الناس بما يقارب ١٠ وعلى يمينها ثمانية عشر صفرًا، (١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) حشرة، أي إنه يقابل كل إنسان واحد مليار حشرة تقريبًا[٥]، وكل ذلك مضبوط محكم في سجلات إلهية لا تخطئ أبدًا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] وعلى هامش هذه الأقدار الكونية الجبارة التي يرعاها الله

---

(١) العصر السيلوري: هو عصر جيولوجي يبدأ من نحو ٤٣٥ مليون سنة وينتهي قبل نحو ٣٩٥ مليون سنة ازدهرت فيه الحياة البحرية: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، محمد مشرف والطاهر إدريس وحسين عوض، دار المريخ، ١٩٩٣م، ص١٤٦).

(٢) العصر الترياسي: هو عصر جيولوجي بدأ منذ نحو ٢٢٥ مليون سنة وانتهى قبل نحو ١٩٥ مليون سنة تطورت فيه الزواحف وظهرت فيه الديناصورات: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، مشرف، (مرجع سابق)، ص١٤٨).

(٣) العصر الجوراسي: هو عصر جيولوجي بدأ منذ نحو ١٩٥ مليون سنة وانتهى قبل نحو ١٣٥ مليون سنة ازدهرت فيه الكائنات الحية على أوسع نطاق: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، مشرف، (مرجع سابق)، ص١٤٩).

(٤) العصر الطباشيري: ويسمى العصر الكريتاسي بدأ منذ نحو ١٣٦ مليون سنة وانتهى قبل نحو ٦٤ مليون سنة سمي بذلك لترسب طبقات سميكة من الطباشير: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، مشرف، (مرجع سابق)، ص١٤٩).

(٥) العلم في ١٠٠١ سؤال، تريفل، (مرجع سابق)، ص١٩.

الخالق الجبار وُجِدت أيها الإنسان، هامشيًّا جدًّا بين هذه المخلوقات، وتدرجت في حضارتك القصيرة، فأنت بالمعيار الحضاري مخلوق بسيط جدًّا إلى جانب قصر أجلك فتاريخك لم يُعرف على الأرض قبل نهاية العصر الثلاثي (البيلوسيني)[١]، ثم تدرجت متطورًا بحياتك البسيطة من العصر الحجري[٢]، فالبرونزي[٣]، فالحديدي[٤]، فعصر العجلة ثم الآلة ثم السيارة والطائرة وسفن الفضاء والموجات الكهرومغناطسية وعالم الإلكترون والذرة والاتصالات، عصور كلها قصور بشري تسميها بما قدرت عليه من استعمال لما سخر الله لك في الأرض من حجر وبرونز وحديد وعلم، تتدرج في اكتشافه، كما يتدرج الطفل في معرفة نفسه ومأكله وحياته.

لقد وجد الإنسان متميزًا عن بقية الكائنات بعقله فقط، وتدرج ببساطة متناهية عبر التاريخ، وتدرجت معه مداركه وسعة آفاق علمه، فالتصورات الذهنية للإنسان الذي عاش قبل ٥٠٠ عام قبل الميلاد، تختلف اختلافًا جذريًّا عنها في فترة ٥٠٠ سنة بعد الميلاد، عنها في ١٠٠٠م، وعنها في عام ٢٠٠٠م. تخيل أنك تطرح سؤالًا علميًّا موحدًا على كلٍّ من سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين عاشوا في حقبة ما قبل الميلاد، الى أن تصل إلى مفكر معاصر اليوم! يستحيل مطلقًا أن تتقارب إجاباتهم فضلًا على عدم تطابقها، فكل عبقري في زمانه أجاب بما أحاط به علمه، ثم تبين لأسلافه بساطة استنتاجه لقلة المعطيات ووسائل العلم عنده، مقارنة بما يتمتع به من بعده، ومهما بلغ الإنسان من النضج والعلم ستبقى الحقيقة المطلقة عن أسرار هذا الوجود ليست في متناول البشر بمن فيهم المعاصرون أيضًا، بل وحتى اللاحقون فيما بعد، ولهذا ليس من الحكمة التوقف عند فهم أو تصور معين قابل للتطوير والتصحيح وربما للإلغاء، ومن

(١) العصر الثلاثي: عصر جيولوجي بدأ منذ نحو ٦٥ مليون سنة وانتهى قبل نحو خمسة ملايين سنة وظهرت خلاله الثدييات وآكلات العشب: (تطبيقات في الجيولوجيا العامة، (مرجع سابق)، ص١٥٠).

(٢) العصر الحجري: وهو عصر جيولوجي بدأ منذ ظهور الإنسان على الأرض حتى عام ٤٠٠٠ ق. م.

(٣) العصر البرونزي: هو عصر ظهور السبائك والفلزات المعدنية وخاصة النحاس ويمتد تقريبًا منذ ٤٠٠٠ ق. م إلى ٣٠٠٠ ق. م.

(٤) العصر الحديدي: وهو عصر دخول التصنيع المعدني باستخدام الحديد ويمتد متداخلًا مع النصف الثاني منذ العصر البرونزي إلى ١٠٠٠ ق. م.

الخطأ ربط مفاهيم النصوص الشرعية بالحوادث المستحدثة القابلة للتغير، ومثله كذلك إلزام الناس بأقوال مفسر معين لنصٍّ شرعي قد مضى عليه قرون، ويحتج بفهمه للنص وهو غير المعصوم من جهة، وغير المطلع على تفاصيل الأمور ومستجدات كل عصر من جهة أخرى، ولكل عصر معطياته وآفاقه العلمية والفكرية.

لا بد أن ندرك أن الوحي لا يحدثنا إلا عن الحقائق كما هي، فيعلمنا ما لم نعلم من هذا الوجود: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] أما اعتماد الإنسان على جهله بالحقيقة التي بين يديه دون أن يدركها، فإن ذلك يقوده إلى التخبط والمعاناة الصامتة، والدليل فرحه بالطريق الآمن، عندما يجده فيبكي على غفلة أسلافه وجهلهم به، ونحن في عصرنا نتحدث بما بلغنا من علم، قد يعفو عليه الزمان، فيأتي من بعدنا من يبكون نيابة عنا على ما كنا نتصوره حقائق في عصرنا انكشف لهم بما فتح الله عليهم من العلم ما يدركون به ما استعصى علينا، وهكذا، كل ما علمه الإنسان أو استنبطه في يومه الذي يعيشه، قد كان جاهلًا به قبل ذلك، وعادة ما يصل الإنسان إلى الحقيقة النسبية عن طريق تتبع وافتراض نظريات يلتمس تطبيقها، فيخفق مرات وقد ينجح مرة، لكن الحقيقة المطلقة هي الحقيقة الباقية في تقدير الله، سواء اكتشفها الإنسان أو جهلها، يقول (وليام هيويل)[1]: «يوجد قناع من النظريات فوق وجه الطبيعة كله»[2]، وتأكيدًا لما قاله، لنتذكر متى عرف الإنسان الفيروسات التي تسبب أمراض الجدري والإنفلونزا وحتى نقص المناعة؟ وهل جهل علماء التاريخ وعباقرته قبل اكتشافها يتعارض مع وجودها أو نفيها قبل اكتشافها، وقد أصبحت اليوم حقائق لا تقبل الجدل عند المتأخرين، إنهم لم يخلقوها بل وجدوها واكتشفوها،

(١) وليام هيويل William Whewell (١٧٩٤ – ١٨٦٦م) الموافق (١٢٠٦ – ١٢٨٣هـ) فيلسوف إنجليزي عاش في زمن أوغستين كنت ألف كتابًا بعنوان (رسائل بريدجوتر) أوضح فيها الحكمة والدور المباشر للخالق بخلق الطبيعة بأسرها: (داروين مترددًا، ديفد كوامن، ترجمة: مصطفى فهمي ومحمد خضر، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٣٠).

(٢) الفلسفة ببساطة، ولسون، (مرجع سابق)، ص١٩.

لكن بعد ماذا؟ كم قتل الجدري من الناس قبل أن يكتشف (إدوارد جينز)[1] المصل المضاد له عام ١٧٩٨م؟ وما الذي أصبح يراه الإنسان عبر موجات الضوء المختلفة بعد أن كان مبصرًا فقط لموجات الضوء المرئي؟ وما مقدار الضوء المنظور بالنسبة إلى غير المنظور؟

*****

﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٣٩].

عندما نقول: إن لغة القرآن وجمل القرآن الواردة في آياته بل وكلماته إنما تعبر عن خطاب رباني فريد في غاية العظمة والكمال، إنما نقول ذلك محاولين وصف بعض الحقيقة المعجزة، الماثلة بين يدينا، مع إدراكنا بقصور كل العبارات عن الوصول إلى الحد الأدنى من وصف كلام الخالق، تأمل آية من كلمتين يتخللهما ثلاثة حروف فقط حصرت هذا الكم الهائل من العلم كله، سواء ما فتحه الله للإنسان في هذه المرحلة أو ما قد يفتح عليه بأكثر من ذلك مستقبلًا، أو الأشياء التي لن يعلمها الإنسان مطلقًا، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٣٩] تذكر أن هذا النص البليغ المكتنز بالمعرفة قد نزل على رجل لا يقرأ، ولا يكتب أصلًا، ولم يغادر مسقط رأسه إلا مرة واحدة للشام في رحلة تجارية، بل ولم يعرف له عمل فكري أو أدبي قبل بعثته، فإذا جاءنا بمثل هذه الآية الشاملة لكل شيء في الوجود، فلنعلم علم اليقين أننا أمام قرآن عظيم كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كلنا قد قرأ هذه الآية مئات ولربما آلاف المرات دون أن نتوقف عندها متأملين بأنها ما تركت شيئًا في الوجود إلا وأشارت إليه، والأهم من ذلك أنها جاءت قسمًا من

(١) إدوارد جينز Edward Jenner (١٧٤٩- ١٨٢٣م) الموافق (١١٦٢- ١٢٣٨هـ) طبيب وعالم إنجليزي لاحظ أن حلابة البقر (سارة نيلمس) لم تصب بالجدري؛ نظرًا لإصابتها بجدري البقر فاكتسب جسمها مناعة ضد الجدري القاتل فنجح في تطعيم مرضاه من جدري البقر؛ لتحصينهم من الجدري فاكتشف لقاح الجدري: (Stefan Riedel Edward Jenner and the history of smallpox and vaccination; Proc (Bayl Univ Med Cent). Jan 2005 ;١٨(١): ٢١-٢٥)..

الخالق لتأكيد مصداقية الوحي نفسه الذي هو مفتاح كل لغز معرفي في هذا الوجود، إنه قمة الإعجاز والتحدي لكل عالم أو متعالم أن يواجه هنا بما لديه من زاد، فكل شيء في الوجود هو مما نبصره أو مما لا نبصره، لكن حتى في عالمنا المحدود وبمداركنا المحدودة، ما الذي نبصره بأعيننا وما الذي لا نبصره؟ يصعب الجواب على هذا السؤال لعدم الجزم في حصر العلوم والمعارف والأسماء في أي مرحلة من مراحل الحياة على هذا الكوكب، لكن لعل نظرة عاجلة على طبيعة فيزياء الضوء الذي هو وسيلة الإبصار والرؤية للأشياء القريبة منا يقرب لنا هذه الصورة.

من المعلوم أن الأشياء لا تشاهد إلا بانعكاس موجات الضوء عليها، والضوء المرئي بالعين البشرية ما هو إلا جزء يسير جدًّا جدًّا من الضوء بشكل عام، فإذا قيل: الضوء المرئي فالمقصود به تلك الموجات الضوئية التي تستطيع عين الإنسان استقبالها وإدراك الأشياء بها دون وسيلة، وهذه لا تشكل نسبة تذكر في سلم الطول الموجي للضوء، أو الموجات الكهرومغناطيسية، حيث تقع موجات الضوء العادي (الضوء العادي وألوانه السبعة المعروفة بألوان الطيف) في المدى ما بين ٤٠٠ و٧٠٠ نانومتر[1]، وذلك على تدريج السلم الذي يبدأ من أقل من ٠,٠١ نانوميتر في حالة الأشعة قصيرة الموجة عالية الطاقة (أشعة جاما) إلى أن يصل إلى أكثر من كيلومتر في حالة الموجات الطويلة وقليلة الطاقة (موجات الراديو).

أشعر أننا بعرض هذا الموضوع الفيزيائي سنكشف (عورة فكرية) للعقل البشري المغرور بضعف إدراكه للوجود، وحتى على مستوى الضوء المرئي لم يكن بمقدور الإنسان رؤية المخلوقات الكبيرة والبعيدة جدًّا أو الصغيرة جدًّا دون واسطة، فهو مضطر إلى استخدام الميكروسكوب كي يرى الكائنات الدقيقة، وإلى التلسكوب ليرى الأجرام السماوية الكبيرة، ولم يكن يبصر أكثر مما يراه بعينه المجردة قبل اكتشاف هذين الجهازين، ولو افترضنا أن كل ما قد يكتشفه الإنسان مما يمكن رؤيته بالضوء المرئي بغض النظر عن صغره وكبره إلى يوم القيامة هو مما يبصره الإنسان اليوم، سيبقى السؤال الأكبر: ماذا عن العوالم الأخرى التي لا يبصرها؟ وما حجم تلك المنظورات بموجات

(١) النانومتر يساوي جزء من بليون جزء من المتر.

الضوء المباشر، إلى غيرها من الأشياء التي لا يمكن إدراكها إلا بواسطة أجهزة خاصة لها القدرة في التعامل مع أنواع الموجات الأخرى كأشعة (جاما) والأشعة (السينية) و(فوق البنفسجية) و(تحت الحمراء) وغيرها؟ وماذا عن الأشياء التي لا يمكن للإنسان أن يبصرها بأي وسيلة على الإطلاق؟! تعالَ عرف بنفسك أيها الإنسان، وأبرز هويتك، واستعرض قدراتك الذاتية بين هذه المخلوقات، ألا تنقلب إليك البصيرة كما انقلب إليك البصر قبلها خاسئًا وهو حسير؟

يجمع العقلاء على مر التاريخ أن الإنسان لا يزال في أول درجات السلم المعرفي، حتى وإن وصلت الاكتشافات العلمية والتقنية إلى مستويات عالية في التعامل مع مختلف أنواع الأشعة رصدًا وتحليلًا وتصويرًا، ومن ثم العرض بطريقة تمكنه من رؤية الأشياء، لقد استطاع الإنسان التقاط صور غريبة عن الكثير مما لا نبصره خاصة في مجال الكون والفضاء باستخدام موجات الضوء غير المرئي، وأصبحنا ما بين مصدق ومشكك لغرابتها، علمًا أن المشككين أنفسهم يتعاملون مع الموجات الكهرومغناطيسية في حياتهم اليومية في الاتصالات الهاتفية سلكية ولا سلكية وفي البث والتحكم عن بعد، ويرون صور هياكلهم العظمية في المستشفى بعد أن تخللت أجسامهم الأشعة السينية التي لم يروها يقينًا، لكنهم رأوا أثرها بيقين أكثر لا يسعهم إنكاره، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

لقد سبق الإشارة إلى أن نسبة الضوء المرئي لا تكاد تذكر في سلم موجات الضوء، ومن الصعوبة بمكان تحديد هذه النسبة، وسنحاول تقريب هذه النسبة؛ ليسهل تصورها، وذلك عن طريق حساب نسبة مدى طول موجات الضوء المرئي إلى المسافة الكلية على سلم توزيع الطول الموجي للموجات الضوئية كلها، ليعلم الإنسان ضيق مجال إبصاره الطبيعي من الوجود، فيقف حيث يجب عليه الوقوف تأدبًا مع الخالق العالم بكل شيء خَلَقَه، من المعلوم فيزيائيًّا أن خط التوزيع الموجي للأشعة (الضوء كله) يتدرج من أقل من ٠,٠١ نانومتر إلى أكثر من واحد كيلومتر، ولو وحدنا وحدة الطول لأصبح السلم متدرجًا من أقل من ٠,٠١ إلى ألف مليار (١٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) نانومتر، وفي هذا السلم يقع الضوء المرئي بألوان طيفه المشهورة فقط في المدى من بين ٤٠٠ إلى ٧٠٠

نانومتر، أي في مدى ٣٠٠ نانومتر فقط من التدرج الكلي لموجات الضوء، وهذا يشكل نسبة واحد إلى ثلاثين مليارًا[1]، يعني لو قدر لك أيها الإنسان، أن تحيط علمًا بكل ما يمكن مشاهدته بواسطة الضوء المرئي من المخلوقات (وهذا في غاية الاستحالة طبعًا)، فلن يكون ذلك بأكثر من واحد إلى ثلاثين مليارًا من الأشياء الممكن إبصارها بالضوء عامة! ومن هذه النسبة الضئيلة ترى أيها ألإنسان، بعض ما حولك من الأشياء المرئية، فما الذي غرّك بربك الكريم أن نصّبت من نفسك حكمًا على الوجود تنفي، وتثبت، وتقرّ، وتنكر؟! تخيل لو أنك تستطيع أن ترى بجميع موجات الضوء المعروفة إلى الآن،

---

(١) وفيما يلي أنواع الأشعة المشهورة ووجودها على سلم الطول الموجي للضوء وهى مرتبة تصاعديًّا بحسب طول موجاتها وتنازليًّا بحسب طاقتها:

١- أشعة جاما Gamma و طولها الموجي أقل من ٠,٠١ نانومتر وهى أعلى موجات الضوء طاقة وأقصرها طولًا ويمكنها النفاذ من خلال كل الأوساط تقريبًا ولا تتقى إلا بحواجز سميكة من الرصاص وحيث إنها تقتل أي خلية حية تمر خلالها فإنها تستخدم طبيًّا في قتل الخلايا السرطانية دونما الحاجة إلى جراحة في بعض الحالات.

٢- الأشعة السينية X-Ray وطولها الموجي واحد نانومتر وهي عالية الطاقة ويمكنها النفاذ من خلال الكثير من المواد ولكونها أقل طاقة من أشعة جاما فإنه يكثر استخدامها في الأغراض الطبية.

٣- الأشعة فوق البنفسجية Ultraviolet ويصل طولها الموجي إلى ١٠٠ نانومتر وتصدر من الانفجارات النجمية وتصدر الشمس كميات هائلة منها وهي أشعة قد تسبب حرق الجلد لو وصلت إليه وقد تؤدي إلى سرطان الجلد عند التعرض لكميات كبيرة منها. ويمكن إنتاجها صناعيًّا لكي تستخدم في الفحوص التي تتطلب دقة كالكشف على العملات المزورة غير أن النجوم تُعدّ مصدرها الرئيس في الكون.

٤- الضوء المرئي Visible light وتتراوح أطوال مختلف موجاته ما بين ٤٠٠ إلى ٧٠٠ نانومتر وفيه جميع ألوان الطيف المعروفة.

٥- الأشعة تحت الحمراء Infrared (IR) ويصل طولها إلى ١,٠ مليمتر ومصدرها عادة من الأجسام الحارة من كل كائن حي وهذه الأشعة تستخدمها الجيوش في تحديد أهدافها من الآليات والجنود التي تنبعث منها الحرارة وأكثر أنواع الثعابين تستخدمها لتحديد فريستها بدقة.

٦- الموجات القصيرة أو الميكروويف Shortwave radiation (SW) وتستخدم في الاتصالات خصوصًا في الهواتف المحمولة وتستخدم أيضًا في أفران التسخين المشهورة وكذلك في إرشاد الطائرات وتحديد سرعة المرور على الطرق.

٧- موجات الراديو Radio waves ويتراوح طولها من متر إلى كيلومتر وتصدر من النجوم مثلها مثل باقي الإشعاعات كما تصدر من عمليات حدوث البرق في السحب إذ يلاحظ التقاطه من أجهزة الراديو وتستخدم في عمليات الاتصالات اللاسلكية بشكل عام.

كيف سيكون شكل الأشياء وحجمها ولونها والكون والوجود من حولك؟ بل تخيل أنك تستطيع أن تدرك ما لم يبلغه علم البشر اليوم، فكيف سيكون الكون هذا أمامك؟ وكيف سيكون إيمانك؟! سؤال لا يوجه إليك وحدك بل لكل إنسان يمشي على الأرض.

إن إطلالة سريعة على هذا الضوء بصفة عامة، وعلى المرئي منه بصفة خاصة، أثبتت لنا أن حقيقة الوجود تفوق جميع هذه التصورات المستحيلة بما لا يمكن تخيله أصلًا، لاحظ أننا تحدثنا عن الطول الموجي لسلم الضوء المرئي وغير المرئي وابتدأنا من نقطة، وانتهينا عند أخرى، وقلنا: هذه هي موجات الضوء، والحقيقة أننا لا ندري عما دونها ولا عما فوقها من موجات ربما لم نتمكن من اكتشافها ولا قياسها بعد! والأشد من ذلك أنا نتحدث عن الإدراك الطبيعي بواسطة الضوء، فمن يدري لعل الذي خلق إدراكًا بالضوء قد خلق إدراكات أخرى بغير الضوء؟! ومن يعلم أيكون لها حدّ أم لا؟ إننا هنا نتوقف؛ لأننا على يقين أن الله على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء سبحانه، وهذا يكفينا حتى نلقاه.

إرجو منك أن تتذكر، بل تستحضر هذه الحقائق العظيمة الباهرة، عندما تمرّ عليك موجة استفسار أو شكوك أو وساوس حول شيء ما في هذا الوجود، أتمنى أن نعرف قيمة الوحي، وما يفتحه لنا من آفاق معرفية مباشرة يستحيل وصولنا إليها من دونه، انظر إلى هذه الآفاق المعرفية التي أشرق ضياؤها من آية واحدة، فكيف لو تتبعنا نور آيات بينات أخر تذرف العيون لهيبتها، مثل قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] أو هذه الآية المزلزلة للقلوب الحية: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥] حقًّا حقًّا أننا كما وصفنا الخالق نرتقي المرتقى الصعب بظلمنا وجهلنا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

*****

الصراحة مع الذات

هناك سر عظيم وراء توجيه الخطاب والرسالات والمواعظ والنصائح وإرسال الرسل وتنزل الوحي إليك أيها الإنسان، بلغة الوعد والوعيد، وبالخوف والرجاء، وذلك لتهيئتك لما بعد الموت، والحكمة من وراء هذا الخطاب تنبيهك بأن أمامك مستقبلًا مخيفًا مروعًا لمن لا يتهيأ له، يستحق كل هذا الاستعداد والتحذير، فيا أيها الإنسان: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨] أما آن لك قبل انقضاء الأجل أن تصحو من هذه الغفلة القاتلة، وتستيقظ من هذا السبات العميق، وتنزع عنك غبش الوسوسة والشكوك المتعارضة مع كل حقيقة، فتدخل فورًا إلى منطقة الأمان، وتعسف نفسك على الحق عسفًا، إيمانًا وقولًا وعملًا، وتنزلها منزلها الطبيعي في الوجود، فلا تجادل في الله بغير علم، وتدرك أنك مخلوق عابر على هامش الأقدار في هذا الوجود، وتهيئ نفسك لما بعد هذه الحياة.

دع عنك هذا (الهيلمان) البشري المزيف، والغرور الخادع، فأنت في البداية لا شيء، وفي النهاية لا شيء! إلا أن الخالق أنشأك خلقًا آخر، أنت كنت عدمًا، فصنعك الخالق، وجاء بك إلى الوجود بلحم وعظم ودم وشعر وحركة تحسها، وبروح لا تحسها، ولن تحسها أبدًا، ولا يعنيك شأنها، وإن كانت أهم ما في وجودك، وذلك لأنها جاءت قدرًا، لقد ولدت فوجدتها معك في جسدك، فهي عارية مستردة يملكها غيرك، وستخرج من جسدك في لحظة قد حددها من يملكها دونك، وستغادر جسدك حينها بلا استئذان منك ولا من غيرك من الخلق! هكذا يجب أن تفهم شأن الروح وما بعد ذلك منها، فهي من أمر ربي وربك، أنت لا تسير في طريق باتجاه واحد فحسب، بل تسير في نفق لا رجعة ولا تحول ولا محيص عنه، فكل شيء فيه يدعوك للاستعداد والتهيئة لهذا المسير.

أرأيت أخي المؤمن، أننا كلما شرقنا أو غربنا في علم المعرفة وأسرار الوجود، فمردنا إلى الله، إلى الخالق في معرفة هذا الوجود، سبحان الله، لا علم لنا إلا ما علمنا به، ولا ملجأ لنا ولا ملتجأ إلا إليه سبحانه، وحده لا شريك له، ولا مفر ولا مستقر لنا إلا عنده، والغيب كله عنده: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣] هذا هو سر انشراح صدور العقلاء المؤمنين مع الدين، وطمأنينة قلوبهم وسعادتهم في كل حال من أحوال الدنيا، أدركوا أنهم تحت رعاية وعناية رب قادر باقٍ يذكرونه بقلوبهم المؤمنة، ويشكرونه بألسنتهم الناطقة، توجهوا إليه وحده بكل إيمان واستسلام وتسليم، يطيرون في فضاء الأنس والطمأنينة عند تلاوتهم قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

إنك تدرك أيها الإنسان، من داخل نفسك أنك عاجز عن إيجادها من العدم أصلًا، ولا تستطيع حمايتها بعد وجودها، وليس بمقدورك أن تجلب لها خيرًا، أو تدفع عنها شرًّا في معزل عن التكيف مع أقدارٍ كبرى ونواميس كونية جبارة، أنت لم تملك تحديد لحظة ولادتك، ولا تملك تقديم ساعة موتك ولا تأخيرها، تبقى يا ابن آدم، الكائن الضعيف في كل شيء رغمًا عنك، وتدرك أيضًا أنك زائل من هذه الحياة، والكون باقٍ وخالق الكون أبقى وأبقى، هذه حقيقة مستقرة وجودًا وقدرًا وضرورة، وكل إنسان يؤمن بها سواء نطق بها أم كتبها في عقله الباطني، فهي حقيقة ناصعة، ولكن هناك من لا يزال يكابر مع نفسه بإنكارها والتشكيك فيها ظاهريًّا، فليفعل ما يشاء، فلن يغير من واقع الوجود شيئًا، فالله تعالى هو الله الباقي سبحانه، وهو الغني عن كل مخلوق قد خلقه بمشيئته وإرادته، وهو الله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

*****

الإنسان ظلومٌ جهولٌ

كل هذه الجدلية الحادة حول الوجود ومآلاته عبر التاريخ والشكوك والمكابرة والكفر والإلحاد في أمر الخلق وشأن الخالق، يتولى كبرها هذا الإنسان الظلوم الجهول المجادل في الله بغير علم، ليت شعري كيف تفكر أيها الإنسان المكابر، بعد أن عرفت حجمك وتاريخك وزمانك ومكانك وعمرك وحضارتك في محيطك الكوني، وكيف

تجعل من نفسك ندًّا للمناظرة الوجودية أمام من ليس كمثله شيء؟ تخيل مدى غرورك وأنت بعمرك القصير بدأت من حيوان منوي لا يُرى بالعين، لتنتهي رفاتًا مختلطًا بالتراب بعد لحظات غير محسوبة لقصرها في مقياس الزمان الوجودي، لا تملك تحديد بدايتها ولا نهايتها، بل كنت فيها مضيعًا لوقتك مهدرًا لطاقاتك غافلًا خصيمًا مبينًا، ثم تريد خلال هذه اللحظة الخاطفة من حياتك أن تغامر بعملك إلى قيام قيامتك، تريد أن تنازع مالك الملك الحي القيوم في ملكه جاعلًا من نفسك محور المعارف كلها، فتثبت وتنفي، وتنكر وتعترف، في حق الخالق العظيم، وكأنك تناظر مخلوقًا مثلك قابعًا في قاعة محاضرة، أو منصة لمناظرة تحت سقف قاعة!

سبحان الله! تذكر جيدًا أنه أنت الذي تدرك مقدار ضعفك عند حدوث المصائب والنوازل عليك، ولحظات الحوداث والوفيات المفاجئة لك، لقد بلغ بك الضعف أمام بعض قوى الكون أن أطلقت عليها اسم (القوى القاهرة) وتقصد بذلك الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات الحادثة على قشرة من سطح الأرض إقرارًا منك واعترافًا صريحًا بعجزك أمامها! وما هي إلا جندٌ من جنود ربك: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. لو تأملنا نزول المطر، وحدوث الجفاف والفيضانات المهلكة والغرق، والأوبئة القاتلة، هل يمكن لأحد من الخلق مهما أوتي من قوة أو علم أن يتحكم فيها؟ هل يستطيع أعلم العلماء أن يتصرف في فوارق الضغط الجوي المنخفض والمرتفع، التي بسببها تهب الرياح، وتنزل الأمطار، أو تمتنع؟ قل لي بربك: أيليق بالإنسان الذي هذا شأنه وضعفه، سوى أن يبقى عبدًا ذليلًا سامعًا مطيعًا منصتًا منكسرًا لمن مقامه مقام الغني القوي القادر العالم الخالق ومن له الكبرياء في السماوات والأرض، يقول وقوله الحق كل الحق: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] ويقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

لقد جرب الأولون قبلك، وذهبوا إلى أبعد مما قد تذهب إليه أنت سرًّا وعلانية، فلم يجدوا بدًّا مما ليس منه بدّ (الإيمان والاستسلام) أو (الاضطراب والتيه)، فعش ما شئت من حياة، وفكر كيفما شئت من أفكار سابحًا في فضاء خيالاتك بكل حرية،

وأقسم برب السماء والأرض لن تنعم بالراحة النفسية، والطمأنينة الوجودية، والتوازن الفكري، ما لم تضع نفسك في الموضع الصحيح المفصل لها وجودًا وعدمًا، وهو أنك عبد ضعيف لمعبود قوي يملك كل شيء وأنت لا تملك شيئًا، فتدرك تمام الإدراك في نهاية كل مطاف تسلكه، أنك مخلوق محتاج إلى من هو أقدر منك، وضعيف أمام من هو أقوى منك، وفقير أمام من هو أغنى منك، وناقص أمام الكمال المطلق، وكل من حاول الخروج عبر التاريخ عن حجمه الطبيعي وفق هذا التصور الحتمي انتهى به الأمر إلى ضياع وشتات، وكان الندم حليفه في لحظة لا ترد ولا تسترجع، إنها لحظة الحسرة عند فراق الدنيا على غير هدى وبصيرة، تلك اللحظة التي يعرف فيها من كان منكرًا لربه الحقيقة التي نذكره بها الآن وهو في حياته، فيظن أننا بذلك نتسوله شيئًا يتفضل به علينا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠] إنه موقف تذرف منه الدموع، وتقشعر له الجلود إذا علمنا بالجواب مسبقًا أنه سيكون فقط: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فاللهم، يا رباه، إنك أنت وحدك المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك، أحيينا مسلمين، وأمتنا مسلمين.

*****

الإنسان والحذر من الموت

الإنسان يموت! أجل إنه يموت، والرفق يقتضي أن تخاطب الأمة الإنسان المكابر المجادل في الله بغير حق، بكل مقدمة البيان المنطقية الممكنة براءةً للذمة وتلمسًا للحق، وذلك على أمل أن يهديه الله حتى لو رفض عدة مقدمات منطقية ونتائجها حاسمة للحقيقة، ومع إصراره على عناده نتجاوز كل ما سبق من مسلمات ومحاولات، وننتقل به إلى تحدٍّ من نوع خاص، لن يستطيع الفكاك منه ولا تجاوزه، ألا وهو رد الموت عن نفسه، أو عن أحبابه من والد وزوج وولد عند وقوعه، لا، لا نطلب منه رده، ندرك استحالة ذلك عليه فنعذره، بل فقط نطلب منه أن يؤجله، أو يقدمه ولو للحظة واحدة عن

موعده المقدر، هذا التحدي ليس من عندنا نحن البشر بل من ربنا رب البشر سبحانه: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وقد يقول قائل: إن المنتحر قد يقدم أجلًا! وأجهزة الدعم للمريض قد تؤخر أجلًا! فنقول له: إن المنتحر المسكين إنما تقدم لأجل قد كتب عليه قبل وجوده، فقدره ألا يتجاوز تلك اللحظة بغض النظر عن السبب، فهو يسعى ليسلم نفسه في الميعاد المحدد مسبقًا، وأجهزة المساندة الطبية تقدم المريض لكي تخرج روحه في أجله المحدد مسبقًا، الذي لا يسعه سبقه، وأمام هذا العجز المطلق للإنسان من أن يتقدم أو يتأخر عن موعد خروج الروح: كيف ينظر إلى مقام من أرسل عليه الموت تلك اللحظة؟ أينكره؟ كل من زعم أنه يملك القوة والإرادة أمام لحظة الموت، نقول له: انتظر إنا منتظرون!

ولكن مع توافر العقل والأهلية والتكليف أدعوك مهما كان إيمانك بالخالق إلى مائدة خاصة جدًّا، فاجلس هنية، نعم، اجلس هنا مسترخيًا خالي البال من كل هم يشغلك، واقرأ الآيات الآتية قراءة من ليس له خيار إلا القراءة، وهيئ نفسك لشكر من أنزلها علينا وعليك، فأنت في ملك الله ولا مناص منه ولا مهرب، وإن كنت ممن يجدون في أنفسهم حرجًا من سماع هذه الحقيقة، فاقرأ الآيات أيضًا، حتى وإن كنت تتجرعها تجرعًا، فليس من الضرورة أن يكون الدواء الضروري مستساغًا، أو يكون بموافقة المريض الذي من أجل شفائه جُلب الدواء أصلًا، اقرأها وتدبرها يا عزيزي، ما دمت بحياتك وصحتك الجيدة قبل مرضك، وفي سعة من أمرك وفسحة في أجلك قبل موتك، انطق بها مؤمنًا قبل أن يتعفن لسانك هذا، فلا تستطيع حراكه، وتتحلل شفتاك بعد الموت المحتوم، فلا تستطيع فتحهما والنطق بهما، وقبل أن يجدك من بعدك رفاتًا وعظامًا بالية لا حراك بها ولا حياة، اسمع جيدًا قول خالقك العظيم المتصرف وحده في ملكه يصف حالنا جميعًا عند حضور الأجل، وقرب خروج الروح، إنها لحظة الموت الذي ينتظر كل مخلوق، الموت الذي نفرّ منه وسيلاقينا، الموت الذي سيدركنا، وإن كنا في بروج مشيدة، استحضر لحظة خروج الروح جميع ما تملكه من تحدٍّ ومكابرة وعناد، كل ذلك سينحى جانبًا، وستستلمك سكرات الموت وحدها أمام الوالد والولد والطبيب والقريب لا يملكون فعل أي شيء على الإطلاق إلا أن يستعدوا للنعي والبكاء، وهذا

دورهم في مكانهم عندك، إلى أن يأتي دورهم في مكانك، وربي إنها الحقيقة، والحقيقة، والحقيقة، فهل من مدكر يستعد لها، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٧] لا تعليق!

*****

الوجود ثم اللحود فاليوم الموعود

الخالق وحده هو الذي رسم خط السير الوجودي للإنسان في حياته وبعد مماته تقديرًا من الخالق كما رسم خط هذا الوجود بكل تعقيداته التي أهمها وجود الوجود نفسه من بدايته التي لا يعلمها إلا هو وحتى نهايته التي لا يعلمها إلا هو، وكل إنسان يستنفد مراحل عمره الطبيعية، فلا يزيد، ولا ينقص من عمره وأجله، مبتدئًا من لا شيء إلى شيء ببطن الأم، ثم إلى مولود ضعيف، فشباب فنضج فكهولة فموت، ولا ينكر ذلك أحد، فهل تستطيع أيها الإنسان، أن تروي لنا وتدوّن مشاهداتك وأنت في طريقك من رحم أمك نحو الوجود حتى أصبحت مميزًا مجادلًا؟ أم أنك لم تكن حينها تعلم شيئًا عن هذه العوالم المحيطة بك قبل أن تصبح قادرًا على التفكير فيها بعد أن مضى عليك عمر بعد ولادتك؟ هذه الخلفية المعرفية لديك، لم تكن مرفقة معك في ملف خلال تلك الرحلة، بل اكتسبتها بأثر رجعي خاص، أي إنك لم توظف فيها الحواس لتكتسبها، أبدًا بل أدركتها بالعقل فقط، لقد سمحت لنفسك واثقًا منها أن ترجع للوراء عقلًا لا حسًّا لتستوعب ما كان يحدث لك قبل وجودك، فتوصلت إلى نتيجة، وأيقنت تمام اليقين بصدق الخبر، وهو أن والديك موجودان قبل خلقك، دون أن تراهما، فهل تشك في ذلك؟ وأن المعاشرة والجماع قد حدث بينهما قبل خلقك، فهل تشك في ذلك؟ وأن أمك حملتك وولدتك، وأنك ولدت كما يولد أي مخلوق، وأمضيت سنتين من عمرك لا تدري عن شيء، فهل تشك في ذلك؟ قطعًا لا! كل هذه الحوادث يقينيات مطلقة عندك اليوم على الرغم من أنك لم تشهدها، فكيف أصبحت عندك يقينية مطلقة؟ من الضرورة أن تجيب عن هذا السؤال بكل صدق أمام ذاتك على الأقل!

لو سألك سائل عن أحوالك ما قبل ولادتك وخروجك إلى عالم الدنيا، سواء كنت مؤمنًا فيها أم مجادلًا، هل تستطيع نشر مذكرات حياتك قبل الولادة؟ كيف عملت تلك الوصلة الفكرية (الفعالة جدًّا) بين حاضرك الذي تعايشه بحواسك الآن، وبين تاريخك الذي عشته بعقلك فقط قبل التاريخ الذي سبق وجودك؟ ليس سرًّا أنك قد فكرت فيه، واستحضرته بأثر رجعي بعيدًا عن الحواس، وسبحت في فضاء العقل وحده، واستعنت بقرائن وبينات وأدلة عقلية، فأخبرك عقلك بالخبر، ثم صدقته تصديقًا مطلقًا! لِمَ فعلت ذلك والخبر قد وصلك بالعقل فقط دون إعمال الحواس؟ والجواب يسير جدًّا؛ لأن تصديق الخبر إذا جاء من مصدر موثوق، لا يشترط فيه المشاهدة والمعايشة الحسية، سبحان الله! أيثق الإنسان بعقله المخلوق كل هذه الثقة في أمور صغرى، فيصدق خبره تصديقًا مطلقًا، ولا يثق بعقله الذي يقوده بقوة إلى الإيمان بخالقه وخالق عقله؟ أتصدق خبر المخلوق عن ماضيك، ولا تصدق خبر الخالق عن ماضيك وحاضرك ومستقبلك؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

إنه من الطبيعي أن تصدق خبرًا بعقلك، وهذا هو الإدراك العقلي الذي به حدثتنا بما حدثك به التاريخ مما لم تعايشه ليس فقط فيما يخصك أنت، بل حتى مما حولك من تقلبات الزمان والمكان، كأخبار إمبراطورية الرومان والإغريق مثلًا، والخلافة الإسلامية، حدثك التاريخ عنها فصدقته، وأكملت تصورك عنها وعن حضاراتها ومنشآتها ومدنها لمجرد أنك وجدت آثارًا تاريخية محدودة من أعمدة ومنشآت متآكلة عن الفرس والرومان، قيل لك إنها ترجع إليهم، وهي لا تعكس اليوم سوى مؤشرات لبقايا خراب! ومجموعة مؤلفات زهيدة أغلبها يفتقر إلى المصداقية والحياد تتحدث عن جزء من الصورة عن ذلك الزمان الغابر! فاستأنست بذلك، وأصبحت تؤمن إيمانًا قاطعًا بوجود تلك الحضارات وغيرها من حضارات الأمم في الصين والشام والعراق ومصر، لقد فعلت هذا بطريقة عفوية، وارتحت له راحة أبدية، دون أن يكون بمقدورك استخدام تلسكوب زماني معاكس لعجلة الزمان الدائرة بلا توقف، بحيث تتجاوز فيه عقبات الزمان كلها لترجع إلى الوراء، فترى بأم عينيك ما يجب أن تصدقه عن ماضٍ قد حدث، وتقلبت فيه الأحداث، وتعاقب فيه الليل والنهار والحر والقر، وأنت حينها: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] نعم، إنك لم تكن شيئًا بجميع معايير الزمان والمكان

والوجود، لكن الخالق وحده قدر زمانك ومكانك وخلقك، وصورك بالصورة التي اختارها هو دون أي دور لك في ذلك، وكتب حياتك ومماتك وأجلك دون أن يكون لك أي خيار أيضًا، وأخبرك أخبارًا صحيحة تتقبلها العقول السليمة، فلم لا نصدقها؟ ولا سيما أنه يترتب عليها مصيرك المستقبلي كله!

أما آن لك يا ابن آدم، أن تعرف نفسك حق المعرفة، وتنأى بها عن هذا التناقض في التفكير الذي لا تفسير له سوى الإمعان في المكابرة، وأن تتخلص من هذه (الغصة) الوهمية التي لا مبرر لها البتة، كلما اعترضك شيطان ليوسوس لك في الغيب المستقبلي تذكّر تلك المرحلة الماضية (من وجودك) قبل لحظة الولادة، فلن تجرؤ على القول: إن حياتك ابتدأت فقط من يوم ولادتك؟ ولا من لحظة وعيك وإدراكك للوجود بعد سنوات عدة من الولادة، ولن تجرؤ أيضًا على إنكار وجودك في بطن أمك بشرًا تحيا وتتحرك، بل لقد كنت موجودًا قبل تلقيح البويضة في رحم أمك، كنت شيئًا ما في صلب والدك وترائب أمك، لا بل كنت ضاربًا في أعماق الماضي بشكل ما وفي أصلاب الأجداد، ومن كانوا قبلهم! ولذلك أتيت إلى الوجود ولك نسب وحسب تحرص على الانتساب إليه مفتخرًا، ولا تقبل الطعن فيه أبدًا، فإذا كان الأمر كذلك حادثًا وموجودًا بغض النظر عن إدراكك له، فلماذا لا تؤمن بأن حياتك لن تنتهي بموتك هذا مثل ما أنها لم تبدأ بولادتك المدركة في حينها أو بإدراكك لها فيما بعد؟

إن حقيقة البعث والنشور وكل ما في اليوم الموعود من وعد ووعيد كلها أخبار غيبية وردتنا من الحي القيوم مباشرة عن طريق الوحي، وهو واجب التصديق وثابت بذاته ولا علاقة لثبوت هذا الخبر مطلقًا بمدى استيعاب البشر وتصديقهم له، إن مسألة وجود إنسان في الوجود بحد ذاتها أكبر من الجدل حول إعادة بعثه بعد الموت، وقد استوعبها عقلاء الناس، وأصبحت حقيقة ماثلة للعيان، فالذي خلق آدم من تراب فأصبح بشرًا سويًّا بهذه الهيكلية المختارة، قادر على النشأة الأخرى، بل هي أهون عليه، ولا يزعم غير ذلك إلا الكافرون الذين لن ينفعهم زعمهم هذا يوم يلقون الحقيقة الكبرى ماثلة أمام أعينهم: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

سيتكرر الحوار معك حول مرحلة ما قبل طفولتك؛ لأنها تكشف لك درجة الضعف التي لا تستطيع معه أن تتذكر صورتك لحظة قدومك إلى الدنيا وأنت عاري الجسد مرتخي العضلات، لا تقدر على إقامة رأسك على رقبتك الرخوة، ولا تملك خدمة نفسك بشيء سنتين من عمرك على الأقل، بل لقد كنت حينها خاضعًا كل الخضوع لمن مقدرته عليك مطلقة، قدر أن يوجدك، فأوجدك كما يشاء في هذا ولا مشيئة لك، ولو شاء لما أوجدك، وقدر أن يفصل تقاسيم جسمك كما ترى، ولو شاء لاختار لك شكلًا آخر، وقدر أن يأخذك، وسيأخذك في اللحظة التي قدرها هو بالموت المعلوم من قبله فقط، لا من قبلك أنت ومن سواك من الخلق أجمعين، وهو وحده الذي قدر ذلك: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠- ٦٢].

أنت الآن في موضع التحدي المطلق مع كل ما تحمله من تفكير وهموم وتصورات متراكمة عن الوجود، فهل كان بمقدورك اختيار الجيل الذي تريد أن تعيش معه؟ أو لون بشرتك، أو حَسَبِ والدك ووالدتك ونَسَبِهما؟ أو طولك وعرضك؟ أو أن تدفع عن نفسك مرضًا سببه أصغر جرثومة توصل إليها العلم الحديث؟ أو أن تؤجل من ساعة موتك ولو ثانية واحدة؟ أجب الآن! كي تتحقق بأنك لا شيء في هذا السياق القدري العظيم، وأنك العبد أمام السيد، وأن ضعفك سيتجلى في أقوى صوره عندما تتخطف مخالب القدر الفتاكة قريبك أو حبيبك، فتراه مسجى جنازة أمامك لا تملك إلا السباحة في بحار أحزانك تتشكى، وتتبكى، وتتعزى طمعًا بالتخفيف فقط من المصيبة وليس ردها قطعًا، يلتف حولك المحبون للتضميد والمواساة والتسلية، دون أن يكون لك أو لهم أي أثر في تأجيل الموت أو حماية ميتك منه.

إنه العجز المطلق بأوضح صوره أمام تلك اللحظة الرهيبة التي يتجلى فيها جوهر الإنسان على حقيقته، هذا هو أنت يا عزيزي، بصورتك الحقيقية أمام الوجود كله، كما هو حالك وأنت تنظر إلى ميتك الذي كان قبل لحظات من عداد الأحياء إنسانًا سويًّا ينادى باسمه الذي أول ما ينفصل عنه بعد الروح، فيتحول اسمه إلى (الجنازة) وعند الصلاة فقط يحدد أذكر أم أنثى بهدف اختيار عبارات الدعاء فقط، ثم ينسى بعد ذلك!

ينتهي هذا التاريخ الصاخب، بأن يختزل كل ذلك الوجود ليصبح (قبرًا) يشار إليه، سرعان ما ينسى من فيه، سينكشف ضعفك أكثر عندما تدرك مستيقنًا رغمًا عنك أنه ما حال بينك وبين أن تكون مكان ميتك تلك اللحظة إلا اختيار القدر له وحده لا اختيارك، وأن تلك اللحظة قادمة إليك كما وصلته لا مفر منها ولا مهرب، وعجزك المطلق يتجلى في عدم معرفة ذلك التوقيت الذي ستكون فيه هدف سهام المنية القادم لا محالة، ومن يملك ذلك كله؟ إنه القائل عن نفسه ﷻ في كتابه وحق له أن يقول، وهو أهل لهذا القول وقوله الحق كله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

ما أعظم وقع الموت الذي يغشى كل حي من الخلق دون استثناء، اللحظة العصيبة من لحظات تجلي الحق أمام الجميع مؤمنهم وملحدهم، تلك اللحظة الحاسمة وأنت تتابع مراسم تشييع ميتك نحو قبره، تصلي عليه بيقين مختلف عما كنت عليه قبل تلك الصلاة، لا وقت عندك للوسوسة والشكوك أو للجدال الاسترخائي والفلسفة والهرطقة والمراء حول الوجود والبعث والنشور، لقد حدث لك شيء ما هنا! كيف سيكون الأمر لو زادت الجرعة قليلًا؟ لو قال لك أحد المشيعين: ماذا تقول عن رأي (أرسطو) في الوجود؟ لصفعته حينها بيدك، فليس في ذهنك أي فراغ شاغر للتفكير فيما سوى وقع الموت الذي اختطف منك حبيبك، كل ذلك تلاشى أمام جزء يسير من الحقيقة الكبرى، تكشفت لك بصمت رهيب لكنها خاطبتك بفصاحة لا نظير لها، فكيف لو ظهرت لك الحقيقة كاملة، وانكشف لك ما وراء الغيب كله، ألم تسمع من قبل هذا التحذير: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢] وكيف بك وأنت تواجه أول مراحل الآخرة: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢] والله وحده المستعان على تحمل أهوال ذلكم اليوم العصيب الذي وصفه بقوله: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧] وحينها يصبح الجميع مرهونين بما قدموه في الدنيا من إيمان في زمن الفسحة والاختيار

والابتلاء، بينما: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعندما يواجه الإنسان تلك اللحظات العصيبة من حياته، سيتذكر خطورة هباء تلك الجدليات والمماحكات والخصومات في الدنيا حول الوجود والقيامة والجنة والنار! لمجرد أنه رأى الموت يخطف قريبه في الدنيا، تلاشى تمامًا ذلك العناد والجدال والبحبحة الفكرية والتجديف الغيبي وغيره من أوبئة الفراغ والترف وهيمنة الغفلة، وساد الموقف في تلك اللحظة يقينٌ عجيب لا تدري كيف تسلل إليك، لكنه الحق كل الحق، واليقين كل اليقين الذي وأنت في سعة من أمرك قد أمرك خالقك بعبادته، حتى يأتيك ذلك اليقين النهائي، فكيف سيكون الأمر لو اطلع الإنسان على أحوال ما بعد الموت من برزخ وبعث ونشور وجنة ونار، هل سيكون للوسوسة والشكوك مكان؟ لا، والله، وهكذا يبقى الموت هو المحك الحقيقي الفعال الذي يكشف ضعفك المطلق أمام الوجود كله، تستقبله مكرهًا، ولكن بهلع الإنسان الذي خُلق به: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

*****

الإنسان والمعرفة الوجودية

علاقة علم الإنسان التراكمي بالزمان الماضي والحاضر والمستقبل غريبة جدًّا، فهو يكتسب معرفة تراكمية عما حوله مع مرور الزمن، وكل جيل يتسلّم الراية العلمية ممن سبقه، وكل علم وصل أو يصل أو سيصل إليه مستقبلًا لا يشكل قطرة في بحر المعرفة الكونية التي لا يحيط بها إلا خالقها، ولا يمكن للعقل البشري تصورها، والتي لم يُخلق الإنسان أصلًا لكي يحيط بها مهما أطلق العنان لخياله، أما مقدار المعرفة الكونية في ميزان علم الخالق، وهل هناك (أكوان) و(وجودات) أخرى، وهل لها حد أم لا حد لها، فهذا ما لا يمكن الخوض فيه لاستحالة الوصول إلى شيء، وكلما أدرك الإنسان عظمة معرفته بالوجود، آمن بعظمة موجد الوجود، ولهذا جاءت نصوص التدبر والتفكر والتذكير.

التحدي لا يزال قائمًا حتى لو استطعت ـ فرضًا – أن تحيط علمًا بجميع تفاصيل الكون من كواكب ونجوم ومجرات وأقمار وفراغ وأحياء وبحار وأنهار، ستبقى ذا علم قليل، وقليل جدًّا؛ لأنك لن تدرك ما وراء هذا: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢] وسعة معرفتك بكل ما تستطيعه من وسائل وقدرة تفكير وأفق معرفي، لن تتجاوز حيزًا محددًا ونطاقًا مغلقًا، وستبقى العاجز دائمًا وأبدًا، وهذا خيارك الوحيد يا ابن آدم، وإن كان لديك خيار آخر فتقدم به هذه اللحظة، والنتيجة قد حسمت مسبقًا، وهي أنك لن تستطيع فهم ما لم تخلق لفهمه تمامًا، كما هو الحال أنك لا تسطيع تقديم (أطفال الروضة) لامتحان الفيزياء في مرحلة الماجستير في (الفيزياء النووية) لما بعد الجامعة! ولا تستطيع دعوة (النمل) إلى حوار في مؤتمر عالمي حول نزع الأسلحة النووية مع البشر، ولا تستطيع تحويل مئات الركاب على متن (طائرة) لتنقلهم على ظهر (بعوضة)! لأنها ببساطة لم تخلق لهذا، وليس هناك مجال للمقاربة، بل يُعدّ ذكر هذه الأشياء في جملة واحدة لأي غرض كان مثار صدمة واستغراب لكل ذي لب، ولكن إيرادها فرضًا جدليًّا بعد أن تمادي الإنسان في ارتقائه مرتقيات معرفية أغرب منها.

وتلك هي الحقيقة الأخرى حين ارتقى الإنسان بجداله وفلسفته عن الوجود مرتقى صعبًا لم يخلق له أيضًا، ولن يكون بمقدوره التفكير فيه، فنحن بوصفنا بشرًا في أدنى درجات سلم المعارف الكونية حتى لو أوصى بعضنا بعضًا بمواصلة البحث واللهث وراء النصوص لصعود سلم المعرفة عبر الأجيال المتعاقبة، ومهما أوتينا من علم لا تكاد حركتنا على هذا السلم تظهر ما يستحيل معه صعودنا إلى درجاته الدنيا، فكيف بالحلم للوصول إلى قمته؟، ولن نصل إلى درجات أعلى ولو من سلم المعرفة الكونية الطويل وفق قوانين الحياة الدنيا، فكيف بما هو فوق ذلك من عالم الغيب الذي فقط سندركه فيما بعد إذا تغيرت قوانين الكون، وأصبحنا أمام أبعاد ومعطيات ومشاهد تختلف تمامًا عما ألفناه في حياتنا الدنيا وذلك اليوم الآخر الذي جاء خبره في القرآن: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

ليس ازدراءً ولا احتقارًا لك أيها الإنسان، أن يقول لك لسان العقل إنك: (لا شيء في عالم الوجود المعرفي)، وحتى إن كرمك الخالق على خلقه، فإنك لا تستطيع أن تصبح شيئًا عظيمًا، فأنت لست فقط لا شيء في وضعك الطبيعي، بل تصل مع الكفر والإلحاد إلى وضعية سفلى، بل إلى أسفل السافلين، بينما تبقى في مقام أحسن تقويم بالإيمان والعمل الصالح فقط: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٥-٦] وعلى الرغم من وجودك العابر الذي يكاد يصل إلى حال غير الموجود زمانًا ومكانًا، ستبقى بالمعيار العقلي والأخلاقي والوجداني تسمو على مملكة الحيوان؛ لأنك مخلوق متميز عنها بإدراكك المعقولات والكليات، وبهذا العقل كنت ممن فاز بالاستخلاف في الأرض وعمارتها إذا غلبت ناموس الخير على ناموس الشر، والإيمان على الكفر، لا لشيء إلا لأنك عاقل.

إذًا أنت إنسان تميزت بعقلك المنير، هذا العقل الذي لا تشك لحظة في وجوده، وأنت على يقين تام بوجوده دون أن تراه بعينك! تؤمن به حق الإيمان، ولا تقبل أن يشكك أحد في وجود عقلك، ولو فعل ذلك أحد لربما قاتلته من شدة غضبك لنفيه لما هو موجود، وهو أنك عاقل تملك عقلًا موجودًا دون أن تراه، أو تستطيع إطلاع خصمك عليه لإثبات وجوده، فلماذا تبخل على نفسك إيمانها بكل ما هو غير محسوس مما يدركه العقل، ومما هو أثبت وأبقى من عقلك، المنتظر منك بهذا العقل ألا تقف عند المحسوسات التي يقف عندها غيرك من الكائنات، بل تتجاوزها به إلى أن تصل إلى التصديق بما لا يمكن إحساسه بالحواس، ولا إدراكه بالعقل، وإنما يدرك بنواميس التكليف مجتمعة كالعقل والوجدان والاستنتاج والاستقراء والفطرة، وأيضًا لا تقف هنا بل تتجاوزه أيضًا إلى الإيمان المطلق بكل معتقد صحيح أثبته وحي السماء، دون حاجة لإخضاعه للمحسوسات والمعقولات والتصورات، ولذلك فأنت بهذا العقل الموجود محل خطاب الوحي الذي أخبرك عن الآخرة غيبًا، وطلب منك الإيمان بها دون أن تراها، ووعدك بالأجر العظيم على ذلك.

*****

الإنسان يكتشف الأشياء ولا يُوجِدها

الموجودات والمعدومات في تفكير الإنسان عالم يختلف عن عالم الموجودات والمعدومات الحقيقية في الكون، هناك معدومات كثيرة عند الإنسان في الماضي أصبحت موجودات في عصره الحاضر، ومعدومات لا تحصى عند أسلافنا أصبحت موجودات عند خلفهم، مثل (الفيروسات والبكتيريا وأنواع الأشعة وأطوالها الموجية والعديد من الكواكب والأقمار والنجوم والسدم والنيازك والشهب...)، كانت عدمًا عند بلايين البشر فيما مضى لمجرد أنها ليست في تصوراتهم وخيالاتهم، فأصبحت اليوم بالنسبة إلينا وجودًا لا شك فيه ونحن خلفهم من بعدهم، وجودًا كان غائبًا عن الإدراك البشري المحدود، فاكتشفه الإنسان، فأصبح في ميزانه وجودًا، بينما هو موجود أصلًا قبل خلق الإنسان، أي إنه موجود في كل مكان وزمان، إلا في عقل الإنسان قبل أن يكتشفه، فيتحول عنده من عدمٍ مجهول إلى وجودٍ معلوم من منظوره هو فقط، ولو ملكنا قدرات خارقة للمألوف، ونظرنا من خلال هذه البوابة السحرية من عالم الغيبات، كم سيكون هناك من العوالم العجيبة والموجودات الرهيبة الأخرى التي ربما تسلسلت إلى نهاية أو بلا نهاية، وهنا سنقف فجأة، ويجب أن نقف فورًا مستسلمين لله الذي: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

لم يشغل تفكير الإنسان أمر، كما شغله شأن الوجود، قضيته الأولى، وشاغلته منذ القدم، ولقد جرت آلاف المحاولات البشرية لفك شفرته وكشف أسراره دون جدوى، وفي كل مرة يحاول الإنسان كسر هذا الحاجز المعرفي يرجع إليه الفكر كما رجع إليه البصر، خاسئًا وهو حسير، إنها القضية الصامتة الملازمة والمحيرة للإنسان في أثناء حياته في جميع مراحل العمر، ولطالما استوحش منها، وحاول الهروب منها، ولكن إلى أين؟ لقد استنفد الإنسان كل محاولاته بعيدًا عن الوحي، فلم يجد جوابًا، ولن يجد خبر تفاصيل هذا الوجود إلا عند من أوجده فقط، ولا نجد تفاصيل كينونة وأجزاء المركبة إلا في (كتالوج) مصنعها وبإذن وإخبار صانعها، فإذا لم نأخذ خبر الوحي مأخذ الجد في فهمنا للوجود، فسنكون في فسطاط أهل الكلام التائهين عن كل حقيقة، والمعزولين

تمامًا عن الوحي والذين حاولوا بكل طاقاتهم تفسير الوجود تفسيرًا ماديًّا ومنطقيًّا مقنعًا، ففوجئوا بانقضاء آجالهم وتتابع أجيالهم قبل أن يخرجوا منها بشيء.

*****

محطات الأقدار أكبر منك يا ابن آدم

غاية الإقرار بالواقعية والإنصاف أن نفهم المعنى العميق لهذه الآية: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨] إنه لا ارتباط مطلقًا بين حال الإنسان والوجود وما بعد الوجود إلا فيما يعود بالنفع والضرر على نفسه فقط، فالأقدار والنواميس الكونية لا تأبه بكل ما يتعلق بالإنسان وجودًا وعدمًا، إيمانًا وكفرًا، أريت كيف تعالت، وتعاظمت عليه، فكيف بتعالي من أوجدها، فهل فكرت يومًا في أثر إيمانك من عدمه على الوجود والأقدار والحوادث؟ بل هل وجودك وعدمك أصلًا يمثل شيئًا أو يؤثر في مجريات هذا الكون؟ إن أثر الإنسان في هذا الوجود لا يزيد على حجمه فيه، وحجمه أنه لم يكن شيئًا مذكورًا، وأنه يستحيل على عقل الإنسان استيعاب عظائم الموجودات، ولا حتى تخيلها، أرأيت كيف تعيش الصدمة المعلوماتية تلو الصدمة كلما اكتشفت زاوية صغيرة من زوايا خبايا هذا الكون الفسيح، تراك بين الحين والآخر تعلن عن اكتشاف كوكب أو قمر أو مذنب جهلته في الماضي، ووجدته اليوم، ثم تتبع ذلك بسيل من التفسيرات المتعارضة والمتضاربة أحيانًا، وقد يحتاج الأمر إلى وقت طويل لكي تستقر المناقشات على وضعية أو فرضية يتواصى عليها الباحثون في النهاية بأنها الحقيقة، ومثل ذلك نظرية نشوء الكون، نظرية الانفجار العظيم (Big Bang) التي أصبحت عرفًا حقيقيًّا مستقرًّا عند عامة الفلكيين، بأن الكون قد نشأ بسببها، على الرغم من الخلافات العميقة حول صحة فرضيتها.

والإنسان صغير جدًّا بحجمه مهما كبرعقله بعينه، وكلما كبرت عليه المعلومة، أغرق في الفرضيات والتوقعات والاحتمالات لتفسيرها واستيعابها، التي غالبًا ما

تضعف صورة الحقيقة المستعصية على فهمه وخياله أصلًا، ولو نطقت عظائم المخلوقات في الكون لاستهزأت بشأن الإنسان المغرور الذي يريد إخضاعها لعقله الصغير، وهو الضعيف الذي لا يتحمل إصابة حجر صغير يقع على حافة ظفر يده أو رجله، يصرخ منه باكيًا شاكيًا، بل تظلم الدنيا في عينيه، ويقف ذهنه لمجرد أن شوكة صغيرة تسللت بين ظفره ولحمه، بينما يبلغ غروره في الرخاء أن يدعي إخضاع حركة أقمار المشتري وزحل، لا بل دوران المجرات لموافقة عقله ومطابقة خياله، وهو القاصر عن استيعاب ذلك كله بل عاجز عن فهم أمر الذبابة والبعوضة.

فيا أيها الإنسان حتى وأنت مكرم غير محتقر في ميزان الوجود، فإن ضعفك مهما كان مقامك لا يؤهلك أبدًا للوصول إلى الحقيقة المطلقة من تلقاء نفسك، فضلًا عن محاولة احتكار حق الامتياز عليها، فالأمر أكبر منك بدرجة تفوق كل تصور وتتجاوز كل خيال، ستكون مساحة الفراغ الذي تشغلها بقدر حجمك في هذا الكون وبعدك الزماني والمكاني، وسيكون نصيبك من الحقيقة بقدر هذا الحيز فقط، لن تتوقف حركات الكون المعرفية والوجودية عند محطتك الصغيرة النائية أبدًا، لأنه ليس ثمة محطة معتبرة أصلًا بالمعيار النسبي لما حولك، أنت ضعيف بشهادة خالقك وهو أعلم بخلقه وأرحم بهم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

قد لا يروق لك أن تسمع أنك على هامش الوجود في هذا الكون، فإن كنت في شك من ذلك فاعترض إن كنت تملك الاعتراض، افعل إن شئت! كلا، فالمقام الإلهي عظيم جدًّا، وأكبر من كل كبير، وأعلى من كل عالٍ، لقد كان الوحي صريحًا وواضحًا، بأن الرسالة القادمة من الله ﷻ أكبر حتى من الرسل أنفسهم، وأنها أبقى منهم حتى لو هلكوا، وتركوها خلفهم بين الناس: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ورسالة الخالق لخلقه لن تتوقف عند حال أمة بعينها تولت، وأعرضت عنها، فلله خلق آخرون وعباد مكرمون: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] ولن تتوقف أيضًا عند حال أمة

أخرى كفرت بالله، وتنكرت للوحي: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

ومسألة الإيمان والكفر قضية عينية مرتبطة بذات الإنسان وحده لا تنفع ولا تضر إلا صاحبها فقط، وهذا أيضًا حكم الله ولا معقب لحكمه، وخلق الكون أكبر من خلق الناس وهو يسير بنواميسه وأقداره المقدرة إلى أجلها المؤجل دون اعتبار للبشر وحياتهم، سواء عليهم آمنوا أم كفروا، وعليه فإن قضية الإيمان هي قضيتك أنت وحدك أيها الإنسان، فاستيقظ لها وتداركها؛ لأنها في جميع المعايير قضية نجاة فردية بالنسبة إليك، واعلم أن المهم الأول عندك هو أنت، فانجُ بنفسك بالإيمان، وأنقذها قبل أن تتطوع لغيرك تجادله، وتبين له، احمِها من أخطار الكفر المستقبلية، واسأل نفسك ماذا أعددت للغد الذي ينتظرك، واستجب لنداء ربك الرحمن الخبير بكل صغيرة وكبيرة من أمرك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

*****

obeikandl.com